باب الزراعة

المنتجات اللبنية

قد يهتدي المتحير في الظلام الدامس الى طريق يكشف لهُ ظلام حيرتهِ وقد يعثر المجد الباحث في الصحراء على الماء اذا اشتدت بهِ الحاجة اليهِ والشدائد توقظ الهمم وقد ينتج الخير من الشر والحاجة تفتق الحيلة وتولد في الانسان حب العمل والمثابرة عليهِ

اذكت الحرب شعلتها في اوربا فعلا لهبها ولفح جميع الممالك اوارها ومصر وان لم تكن ميداناً لها تدوي فيهِ المدافع وتزهق فيهِ الارواح وتراق الدماء ألا انها كانت ميدان حرب اقتصادية أشعل نارها امتناع ما كان يرد اليها من الخارج فيسد حاجة اهلها النامين وكثرة ما احتاجت اليهِ الممالك الاجنبية من المحصولات المصرية لانصرافها الى وسائل الهجوم والدفاع

لقد كان الفلاح المصري يبيع حاصلاتهِ باثمان زهيدة قانعاً منها بالربح اليسير راضياً بما يسد رمقهُ وقد كادت الديون تستغرق جميع امواله وتذهب باسباب حياتهِ فلما نشبت الحرب كان لهُ من قلة الايدي العاملة وحاجة العالم الشديدة اليهِ ما فسح لهُ الامل في الحياة الطيبة وفتح لهُ أبواب العمل والسعي والمزاحمة فابدل اكوام غلالهِ ومحصولاتهِ ذهباً وقد اتسع المجال امام عينيهِ للانتفاع ببعض منتجاتهِ التي لم يكن يعبأ بها لقلة ربحهِ منها حتى اصبح دخلهُ منها يعادل دخل كثير من حاصلاتهِ الاساسية

ومن أهم هذه الاشياء المنتجات اللبنية فقد تنبه الفلاح وكثيرون غيرهُ الى الاتجار بها لما رأوهُ فيها من ارواج العظيم في الحرب على اثر انقطاع ما كان يرد الى مصر من الجبن والزبدة فاكتسبوا بذلك مالاً كثيراً واحيوا صناعة كادت تكون معدومة في مصر مع وفرة اسباب تقدمها وانتشارها

وها هي الحرب قد انتهت ورأينا بوادر الجبن والزبدة الاجنبية تظهر في الاسواق المصرية ونخشى ان ترجع الحال الى عهدها الاول فتنطمس آثار هذه الصناعة من مصر بعد ان اخذت لها مكاناً عظيماً لائقاً بها وهذا ما يدعوني الى الكتابة في هذا الموضوع الحيوي رحمة بالمشتغلين به وحفظاً لجانب من ثروة البلاد ينمو بالانماء ويزداد مع العمل على زيادته . ولكي يقف القارىء على مبلغ تقدم هذه المنتجات في عهدها الاخير في مصر ومقدار ما ينتظر من الخير للبلاد بواسطتها أرى كتابة تاريخ مجمل لها منذ عرفها المصريون الى الآن سيما وانهُ لم يسبق لاحد الكتابة في هذا الموضوع الذي يحلُّ المحل الاول في نظر البلدان الغربية

لم يكن في القطر المصري قبل عام ١٨٩٠ معامل للزبدة ولا للجبن على الاطلاق وذلك لان الاهلين كانوا يجهلون صنعها في ذلك الحين لعدم حاجتهم اليها فان المصري لا يستعمل في مأكلهِ غير السمن فكانوا يحولون اللبن الى سمن وزبدة فلاحية تشترى في الغالب لتحويلها الى سمن وكان كل فلاح يصنع بيده ما يحتاج اليهِ من الجبن وما فضل عن حاجتهِ يبيعهُ في المدن بثمن بخس ولم يكن لذلك البيع في نظره اهمية كبيرة . وظلت الحال على هذا المنوال الى سنة ١٨٩٠ حينما فكر أحد الفرنسويين الذين في هذا القطر في انشاء معمل لاستخراج الزبدة بطريقة افرنجية وجعل يبحث عن البقعة التي يوجد فيها اللبن اكثر منهُ في سواها وتصلح لهذه الصناعة فهداهُ البحث الى مدينة دمياط فقام بتحويل نظر الاهالي هناك الى هذه الصناعة فما زالوا يسعون حتى عرفوا سرها وبدأوا يفتحون معامل كمعمل ذلك الفرنسي وادى الامر الى تنافس بين هذه المعامل كانت نتيجتهُ ان تفاوضوا جميعاً في ان يكونوا يداً واحدة فاتحدوا وبنوا معملاً كبيراً مستوفياً الادوات والشروط الصحية وباشروا العمل بضع سنوات انتهت بالتفرقة شأن الكثير من الشركات التي يعقدها المصريون واخذ كل منهم ينشىء معملاً مستقلاً . فرأى الافرنجي ان لا حياة لهُ مع هذا الجمع من الوطنيين فاعتزل العمل واستمروا هم يعملون الى يومنا هذا . وفي سنة ١٨٩١ أنشأت مدرسة الزراعة في الجيزة معملاً للزبدة كان يصنع بضعة ارطال كل يوم في فصل الشتاء يبيعها لخواص الاجانب

الان ثمنها كان ضعفي ثمن ما يصنع في غيرها من المعامل لما بين الاثنين من الفرق العظيم في الجودة والنظافة ومراعاة الشروط الصحية ،التي تساوي في نظر الخبير اكثر من تلك الزيادة في الثمن . ونشأ رجل من الاجانب معملاً لصنع الزبدة في طهطا بمديرية جرجا بعد ذلك بسنتين او اكثر فكان من امره بعد انفراده بالعمل ما كان لسابقيه في دمياط واعني بهذا ان الاهلين انشأوا معامل كثيرة هنالك وكان من نتيجة ذلك كله ان ظهرت نهضة كبيرة في البلاد لما رأى الناس من ربح هذه الصناعة فاخذ من استطاع منهم في انشاء معمل خاص له فلم تمض عشر سنوات حتى كان في مصر ما يزيد على عشرين معملاً فدى الامر الى نقص المقدار الذي كان يرد من الخارج من الزبدة الجيدة واكثرها من استراليا والنمسا وايطاليا لان المقادير التي صنعتها تلك المعامل المصرية في كل سنة فيما بين ١٨٩٠ و١٩٠٠ قدرت بنحو ٣٠٠ ٠٠٠ كيلو جرام في السنة وهذا المقدار اكثر من ثلاثة اضعاف المقدار الذي ورد من الزبدة سنة ١٩٠٠ وهو ٩٤٦٩٣ كيلو جراماً من ايطاليا وانجلترا والنمسا والمجر فلما رأى اصحاب المعامل ان الزبدة التي يصنعونها اخذت تحل محل بعض ما يرد من الخارج علاوة على زيادة ثمنها عن زبدتهم استمروا في عملهم متوسعين فيه واخذ غيرهم اخذهم فكثر عدد المعامل وكان اكثرها في مدينة دمياط وطهطا والقاهرة والاسكندرية فنشأ عن هذه الزيادة تناقص الوارد من الخارج. والى القارىء بياناً بالوارد من سنة ١٩١٠ الى ١٩١٥ مأخوذاً من احصائيات مصلحة الجمارك

سنة	المقدار بالكيلوغرام	القيمة بالجنيه المصري
١٩١٠	١ ٣٣١ ٨٣٨	١٢٠ ٤٧٢
١٩١١	٩٨٩ ٤٧٨	٨٨ ٢٢٣
١٩١٢	٩٩٦ ٥٠٩	٩٨ ٢٣٤
١٩١٣	٨٨٧ ٩٩٦	٨٧ ٠٨٤
١٩١٤	٨٨٢ ٣٢٥	٨٥ ٦٠٧
١٩١٥	٥٤١ ٧٨٦	٦٩ ٣٥٥

فترى من هذا الاحصاء ان النقص في الوارد استمر في السنوات الاخيرة

وفي هذا دليل واضح على ان مقدار ما يصنع في القطر آخذ في الازدياد . ومن يدقق النظر يجد ان الزبدة التي قل ورودها في هذه المدة هي الزبدة الجيدة التي تنافسها الزبدة المصرية لانها تباع ارخص منها ولا تقل عنها كثيراً في الجودة

ومن سنة ١٩١٥ الى نهاية سنة ١٩١٨ انقطع الوارد انقطاعاً يكاد يكون تاماً فادى الامر الى الاعتماد على ما ينتجهُ القطر فارتفع ثمن الزبدة ارتفاعاً عظيماً كان من شأنهِ انصراف عددكبير من الاهالي الى الاشتغال بهذه الصناعة ولكنهم بدلاً من محافظتهم على جودة الصنف ليحفظ مركزهُ التجاري في المستقبل تفننوا في غشهِ تفنناً افقدهُ كل مميزاتهِ وذلك طمعاً في المكسب الكبير لان الكميات التي كانت تستهلكها الجيوش الموجودة بالقطر كانت عظيمة جداً الى درجة لم تكن لتخطر ببال .ومن هنا يتبين ان ما ينتجهُ القطر يزيد كثيراً عن مقطوعيتهِ وان المشتغلين بهذه الصناعة لو احسنوها لانتفعوا بربحها ووفروا على البلاد المبالغ الطائلة التي تدفع بالزبدة الاجنبية التي تنافس زبدتنا تنافساً مؤذياً ولكننا مع الاسف لو تركنا الامر للمشتغلين بهذه الصناعة لظلوا عند الحد الذي هم فيهِ الآن وذلك لجهلهم جميعاً الطرق الفنية والعلمية لهذه الصناعة فضلاً عن فقدانهم الذوق الاوربي في تشكيلها بشكل مقبول يسر المشتري ويرغبهُ في الشراء.فالحل الوحيد لهذه المسألة هي ان نسلك الطريق التي سلكتها الممالك التي بلغت نهاية النجاح فيها. فامامنا بلاد الدنمارك وهولندا وسويسرا واميركا وغيرها كل هذه اذا نظرنا الى عامل تقدمها الاكبر نجدهُ اتحاد افرادهم على انشاء الشركات الكثيرة وهذه الجمعيات تبحث في كل ما يوصلها الى درجة الكمال من جميع وجوهو فتختار للمسائل الفنية رجلاً قديراً واسع الخبرة ملماً بجميع الاصول العلمية والعملية وتعهد في المسائل الادارية الى رجل يحسنها فينظم عملها ويعلن عنها في كافة البلاد المصرية وغيرها فتثبت اقدامها وتضمن بقاءها وتقدمها

اما اذا نظرنا الى حالتنا الحاضرة فنجد اننا في ازمة شديدة لا نعرف للخلاص منها طريقاً فقد كثرت في هذه الايام الزبدة لدرجة عظيمة فاضطر تجارها الى عرضها في الاسواق باثمان زهيدة ومع هذا فلا يجدون من يشتري فاضطروا الى تخزينها على امل تحسن السوق في الصيف ظانين ان هذه السنة كسابقاتها مع ان

الامر بالعكس لان عدد المستهلكين قل او هو قد انتهى تقريباً لان الجيوش التي كانت بالقطر وما جاوره من الاقطار معظمها رحل عن البلاد والجزء الباقي يستعمل الزبدة الاسترالية التي نرى ورودها الآن بكثرة الى مصر طامة كبيرة على صناعتنا مع ان ثمنها اغلى من ثمن الزبدة المصرية وصنعها لا يفضل زبدتنا اذا صنعت على الطريقة العلمية لان الزبدة المشغولة هنا تقدم الى المشتري وهي (طازة) اما الزبدة الاجنبية فيضطر مرسلوها الى حفظها بالملح او بمواد كيماوية اخرى .. ومع هذه الاسباب كلها نرى ان الزبدة المصرية في كساد والاسترالية في رواج وما ذلك الا لفرق بين المشتغلين بهذه والقائمين بتصريف تلك فالمصريون لا يعرفون الطرق العديدة لعرض الصنف في السوق حتى يحوز قبول المشتري اما الافرنجي فانهُ بالعكس لا تبور تجارتهُ بحسن ذوقهِ وتفننهِ في عرضها واعتمادهِ دائماً على تأسيس الشركات ليكون رأس المال كافياً لتنفيذ جميع رغباتهِ حتى اصبحت لهُ عند التجار الافضلية دائماً على الوطني اذا تساوى الصنفان او كادا يتساويان

هذا فيما يختص بالزبدة اما الجبن فقد مرت بهِ الادوار التي مرت بالزبدة زمن الحرب اعني ان انقطاع الوارد مهد السبيل لعدد من المصريين لصنعهِ فانتفعوا من ذلك انتفاعاً عظيماً وهم مع هذا لم يحسنوا الى الآن صنع صنف ما ولا يزال اعتمادهم الى الآن على صناعة الجبن البلدي وهو اسهل الاصناف صناعة ومع هذا فان الفرق بينهُ وبين الجبن الذي يرد من البلقان كبير جداً في الجودة فضلاً عن رخص ثمنهِ وها هو الآن اوشك ان يفقد مركزهُ الذي حصل عليهِ زمن الحرب بانتهائهِ وورود الجبن من الخارج . فقطر كهذا مورد ثروتهِ الزراعة واللبن احدى فروعها الاساسية لا يصح خلوهُ من صنف جبن يعتمد عليهِ ويعرف في كافة البلدان ثم اشتهرت كل مملكة من الممالك بصنف لا يمكن لغيرها منافستها فيهِ فتربح منهُ ربحاً يضمن لهُ البقاء الدائم

وفي مقال آخر سنشرح العلاج الذي يجب اتخاذهُ لبقاء هذه الصناعات حية متقدمة في مصر

محمد مختار الجمال

صاحب معمل ايبس بدمياط

١٣ يوليه سنة ١٩١٩